إنصاف

الأستاذ شفيق جبري

رحم الله الأستاذ الرئيس محمد كرد علي أوسع رحمة ، كان في بعض الأحيان شديداً في حكمه على الرجال ، ولست أقصد بقولي هذا أنه كان متحاملاً وإنما كان ينظر إلى الأمور من جهة واحدة ويهمل النظر إليها من جهتها الثانية ، وقد تكون الأمور التي ينظر إليها من جهة واحدة تشتمل على بعض السوء ، والأمور التي لا ينظر إليها من الجهة الثانية تشتمل على بعض الحسن ، وإذا وازنّا بين النظرتين تبيّن لنا أن الحسن قد يزيد على السوء حتى يكاد يمحوه .

في كتابه الخالد : (أمراء البيان) فصل عن ابن العميد ، لا يهمنا في هذا المقال رأيه في الذين توسعوا في تصوير سيرة ابن العميد وبالغوا في أدبه وأكثروا ولا تهمنا الأسباب التي يراها الأستاذ الرئيس أنها زادت في شهرته ، وقد يكون حكمه في هذا الباب معتدلاً ، أما حكمه على سيف الدولة وعلى شاعره المتنبي فقد كان يحتاج إلى بعض الاعتدال ، فقد جاء في خلال كلامه على ابن العميد مقطع أوحى إلينا هذا المقال ، وهذا هو المقطع :

« وبعد الذي رأينا من مبالغات الشعراء في كل عصر ملنا إلى التوقف في الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذي قيل فيهم ؛ شهدنا شعراء مدحوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

رجالاً وهجوهم في آنٍ واحد ، فأيّ أقوالهم نصدّق ؟ هذا سيف الدولة ابن حمدان قد خلع عليه المتنبي من الأماديح ثياباً فضفاضة فخلد ذكره في العالمين ، ولو بحثنا في سيرة سيف الدولة ما زدنا في تعريفه على مانصف به ملكاً جائراً مستبداً ، يستحلّ أكل أموال الناس بالباطل ، ويخرب البلاد لينفق مايسلب في أبهته ويفرط في الإفضال على مادحيه وبذخه . وإذا تأملنا هجوه كافوراً الإخشيدي بعد أن مدحه ورفعه نسجل له أنه ظلمه كثيراً فإن سيرته كانت أزكى من سيرة سيف الدولة ، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وأمثال ابن حمدان من ظلمة الملوك والأمراء ، وهكذا يقال في أكثر ما نسجه الشعراء من أماديح العظماء والأمراء ، فلما قصروا في العطاء تراجع الشعر وذهبت بهجته » .

لا ريب في أن الشعراء يبالغون في تصويرهم وهذه المبالغة قد تكون في بعض الحالات من خصائص الشعر ، فإذا قال الشاعر في فلان إنه جواد كانت صورته إلى النثر أقرب منها إلى الشعر فلابدّ للشاعر من أن يصور الجود في صورة شعرية تكاد العين تراها وتكاد الأذن تسمع صداها وتكاد النفس تحسّ بقوتها ، وقد يكون للمبالغة حدّ يجب أن تقف عنده فإذا زاد هذا الحدّ ضعف تأثير المبالغة ، ولذلك مدحوا الأمم ذات الخيال المصقول كاليونان في القديم . ومبالغة المتنبي في أماديح سيف الدولة قد تخرج في بعض الأحيان عن الحدّ ، ولكنها قد تكون في بعض الحالات معتدلة لا اعتراض عليها ، والأبيات المعتدلة كثيرة في هذه الأماديح لا حاجة بنا إلى الاستشهاد بها . إني لا أرمي في هذا المقال إلى الكلام على شعر المتنبي وإنما أرمي فيه إلى إنصاف المتنبي وإنصاف ممدوحه سيف الدولة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد مدح المتنبي سيف الدولة ولكنه مـــدح أيضاً حروبه وهذه الحروب لم تخلد سيف الدولة وحـده وإنما خلدت العرب بأجمعهم ، فـإذا بالغ المتنبي في وصفها ووصف صاحبها فلم يكن في مبالغته شيء من الضرر . على أن في وصف معارك سيف الدولة شيئاً آخر يهم رجال الحرب في عصرنا فإن كتب التاريخ قد يجوز أنها تـكامت على حروب سيف الدولة وأهملت الكلام على أساليبه في تلك الحروب ، وفضل المتنبي واضح في هذا المعنى ، فقد صوّر تلك الأساليب تصويراً يستطيع رجال الحرب في عصرنا أن يدركوا أسرارها وأن يقابلوا بينها وبين أساليب الحروب في هذه الأيام ، فلم يخطىء ابن الأثير لما قال في المتنبي : « إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجـع من أبطالها ، وقامت أقواله للمسامـع مقام أفعالها ، حتى يُظن أن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه في ذلك يضل بسالكه ، ويقوم بعذر تاركه ، ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدّاه عيانه » .

لقد مثل أبو الطيب في وصف المعارك جهة من جهات عصر سيف الدولة فكأن شعره في هذا الوصف مرآة مصقولة تعكس تلك الجهة ، فقد حفظ لنا المتنبي لوحاً ناطقاً يفصح عما رسم عليه من غزوات سيف الدولة وغاراته ، فلم يغادر أمراً من أمور تلك الحروب إلا وضّحه حتى تجلت لنا مهابة سيف الدولة في العيون ومقادير فضله في دفع الروم عن ديار الشام ، ومهما يصف رجال التاريخ هذه الغزوات والغارات فلا يستطيع وصفهم أن ينطق بما نطق به شعر المتنبي المشتمل على صور شتى ، فإننا لانشاء أن نعرف شيئاً عن جيش سيف الدولة وعن سفنه وعن مخافة الروم منه وعن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شدة غزواته وعن صباغها القومي وصباغها الديني وعن تحريق منازل الروم وتخريب ديارهم إلاّ عرفناه .

فإذا نظرنا إلى مبالغة المتنبي من جهة الاشتطاط فلا يجوز لنا أن نهمل النظر إليها من جهتها الحسنة التي تغطي على كل اشتطاط .

وكما لم يخل المتنبي من حكم الأستاذ الرئيس الذي كان شديداً فكذلك لم يخل سيف الدولة نفسه من هذا الحكم ، فقد يجوز أن سيف الدولة كان جائراً ، مستبداً ، قد استحلّ أكل أموال النـــاس بالباطل وأفرط في الإفضال على مادحيه وبذخه ، كل هذا قد يجوز أن بعض رجال التاريخ قد تعرضوا له في تاريخهم ، ولكن على الرغم من هذا الجور وهذا الاستبداد وهذا الأكل للأموال بالباطل أفلا يحق لنا أن ننظر إلى الذي فعله سيف الدولة ؟ ولا يحتاج هذا الفعل إلى كلام طويل ، حسبنا أن نعرف أن سيف الدولة قد وقف في وجه الروم وحال دون زحفهم إلى بلادنا ، فلو تمّ لهم هذا الزحف أفكانوا يعفّون عن تخريب البلاد وعن أكل أموال الناس بالباطل ، أفمـــا كان تخريبهم لو تمّ لهم ذلك الزحف أعظم من تخريب سيف الدولة ، أفما كان أكلهم لأموال الناس أعظم من أكل سيف الدولة!؟ معاذ الله أن نرى في أعمال سيف الدولة ، إذا صحّت هذه الأعمال ، وجهاً من الحق ، ولكن يجب علينا أن ننظر إلى سيف الدولة من ناحيته المشرقة كما نظرنا إليه من ناحيته المظلمة فإذا فعلنا ذلك تبيّن لنـا أن الإشراق يغطي على كل ظلمة ، إذا فعلنا ذلك تبين لنا أننا قد أنصفنا سيف الدولة فلم نحـكم عليه من جهة واحدة ، وهي الجهة السوداء ، دون أن نعترف بجهته البيضاء .

لنرجـع الآن إلى هجاء المتنبي لـكافور الاخشيدي ، إننا لا ننفي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن كافور الصفات الحسنة التي يراها الأستاذ الرئيس فيه ولكنّا نبحث عن السبب في هذا الهجاء فقد أساء كافور إلى أبي الطيب من أول اتصاله به ، فقد أظهر له التهمـــة أول يوم . ولم يسمح له بأن ينشده وهو قاعد ، ولم يسمح له بأن يجلس في مجلسه ، ووعده أن يوليه فأخلف الميعاد ، وفي خاتمة الأمر نوى أن يقتله ، أفنريد من المتنبي أن يكون متصلاً بأفق الملائكة حتى يعفّ عن هذه الأمور كلهـا ، وهو من هو ، رجلٌ كلـه عصب هائج مائج !.

إني أكتفي بهذا القدر من الكلام على إنصاف سيف الدولة وشاعره راجياً ألاّ يكون في هـذا الكلام انحراف عن الحق ، ورحم الله مرّة ثانية الأستاذ الرئيس محمد كرد علي الذي هيأ لنا فرصة لتقليب النظر في كتابه الخالد : أمراء البيان .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net